# الجامعيّون الطوارق
# نحو تكريس المؤسّسات التقليديّة أو إصلاحها؟

**مريم بو زيد - سبابو[1]**

**ملخص**

تطرح هذه الورقة التساؤل عن مدى تأثر الجامعيين التوارف (الطوارق)، منذ التسعينيات، بظروف وثقافة سكان الشمال إثر احتكاكهم بمختلف الثقافات المغايرة لثقافة تبدو خاصة ومتفردة مع التركيز على مدى التغيرات التي أحدثوها في المجتمع المحلي، وطبيعة التغيرات التي يمكن أن تتأسس على أيدي البنات الجامعيات والجامعيين من الذكور: اختيار نمط الحياة، القطائع المختلفة مع الأنظمة التقليدية أو تكريسها، اختيار الشريك وغيرها من المتغيرات التي تسمح لنا بالوقوف على تلك التغيرات والصدامات.

## أوّلاً: مقدمة

في سياق مقابلات كثيرة أجريت مع نساء من أعمار مختلفة حول مظاهر التغيّر التي مسّت مجتمع النّساء، امتدّ الحوار ليصل إلى ظاهرة العنف (ضدّ النّساء) إذ وجدن بأنّ الظاهرة بدأت تزحف على المجتمع، وأنّ أوّل من ضرب زوجته هو من الشباب المتعلّمين بالجامعة وقالتها المرأة بتعجب واستهزاء كبيرين، ولكن هل هذا سبب كاف لتحديد ظاهرة معقدة كالعنف ضدّ النساء؟

وإن كان موضوعنا هنا تأثير الجامعة على مختلف مستويات المجتمع «التقليدي» فإنّ العلاقات التي تربط الجنسين هي إحدى أهمّ هذه المستويات لأنها الدعامات البيولوجية والثقافية للمجتمع برمّته، لذلك أردنا دخول عالم الجامعة والجامعيين[2] لمعرفة تأثير الجامعة كمؤسسة شاملة على المجتمع. وهل يرتبط التغيير بمستوى التعليم العالي أم هناك متغيرات أخرى أثرت على منظومة العلاقات والقيم التي تربط الجنسين؟ هل تأثّر المجتمع بمختلف الأفكار وأنماط الاستهلاك الجديدة نتيجة الاحتكاك بالمؤسّسات الحديثة: الشركات، الجيران من مدن الشمال مختلفي العادات والتقاليد، وتأثيرات الأبناء

[1] أستاذة بحث في المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، وأستاذة جامعيّة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتبسة، دكتوراه في الإنثروبولوجيا الثقافية من جامعة الجزائر. عنوان الكتروني: m__bouzid@hotmail.com

[2] يقصد بالجامعيين في هذه الدراسة الطلاب الجامعيون وخريجو التعليم العالي، وهذا لا يشمل الأساتذة الجامعيين بالضرورة.

ممّن حازوا على مستويات تعليميّة ومهنيّة عالية من المعاهد والجامعات؟ هل يمكن للتّعليم بالجامعات أو لمؤسّسات التعليم العالي أن تؤثّر على المجتمع ومؤسّساته وتكمّل ما غيّرته المؤسّسات الأخرى التي نتجت عن الاستعمار وعن مواصلة التحديث الذي نهجته سياسة الدولة الوطنيّة في الجزائر؟ أم أن المجتمع مازال يمارس كلّ سلطه نّابعة من مختلف الأنظمة والأعراف والمؤسّسات المنعوتة بالتقليديّة؟ لابدّ أن نعرّف بالمؤسّسات التقليديّة هنا، ويقصد بها مجمل الفضاءات التي ما تزال تسيّرها الأعراف ومنظومة القيم الاجتماعيّة المتوارثة ولم تستطع المؤسّسات الحديثة تلك النّاشئة عن الاستقلال وما تبعه من اختراقها. ونقصد هنا تحديدا التقسيمات القبليّة والمجموعات في بلاد الطوارق التي تخضع لسلطة معنويّة تسيّرها، كأصول الأمّهات وما ينتج عنها من سلطات متنوعة، وفضاءات الاحتفالات التي ما تزال تتجلّى وتطغى على مشهد الواحات، وفضاءات احتكاك الجنسين، ومؤسّسة الزواج ... أي تحديدا كلّ ما يمسّ مجتمع النساء الذي يتمتّع بمركزيّة تشكّلت عبر حقب التّاريخ الطويل.

أردنا أن نختبر متغيّر التّعليم الجامعي ومدى تأثيراته «الايجابيّة» و«السلبيّة» على بعض مؤسّسات المجتمع: تهذيب المؤسّسة وتطوير بعض جوانبها، وبعض جوانب هذا التّهذيب الممكن نعته بالعنيف والذي يخلق سلوكات غير معهودة بالمجتمع ومنبوذة. يقصد هنا بالتّهذيب حالة تغيير «عنيفة» على المستوى الرّمزي يمارسها الفاعلون على القيم والممارسات الاجتماعيّة السّائدة بالمجتمع والتي لم تعد تتلاءم ونظرتهم الجديدة لكلّ المؤسّسات، وعن هذه الإشكالية نتجت فرضيتان اثنتان تمثّلتا في:

1. للتّعليم الجامعي دور في تغيير بعض السّلوكات وردود الأفعال تجاه الثّقافة المحليّة: العلاقة بالتّراث وبالعادات المختلفة وأنماط الاستهلاك المذكورة، أي إحداث تغيير نوعي في المؤسّسات التقليدية يمكن نعته «بالإيجابي». يشكّل المتعلّمون الجامعيون ظاهرة «المراقب» الجديد على سلوكات النّساء مماّ يخلق أنماط عنف جديدة فيالمجتمع.

## ثانياً: الطّوارق في الخريطة الجغرافية والثقافيّة

يتوزّع الطوارق على خمسة من البلدان الإفريقيّة وهي: الجزائر، ليبيا، مالي، النيجر وبوركينا فاسو. ويقسّمون إلى طوارق شماليّين (طوارق الشمال) وبقصد بهم المتواجدين ببلدان شمال إفريقيا، أي الجزائر وليبيا، وطوارق الجنوب المتواجدين في بلدان السّاحل الإفريقي: النيجر ومالي وبوركينا فاسو. استعملت عبارة طوارق الشمال (Les Touareg du Nord) أول مرّة من قبل الرحالة والمستكشف الفرنسي هنري دوفيريي (Duveyrier, 1864) في كتاب حمل نفس العنوان. أمّا عبارة الاحتكاك بالشمال فيما يخصّ الجامعيّين، فالمقصود بالشّمال هنا، مدن شمال الصّحراء الجزائريّة أي باتّجاه البحر الأبيض المتوسّط، فالشّمال لفظ يتغيّر حسب دلالات ثقافية وجغرافيّة.

لا توجد إحصائيات عن الطوارق ذات مصداقيّة، بل هي تقريبية نتيجة وجود البدو الرّحل وإن شكّلوا نسبة ضئيلة مقارنة بالطوارق الذين أصبحوا مستقرّين نتيجة العديد من العوامل، منها التاريخيّة، كحالة مجتمعنا عينة هذا البحث، إذ إنّ طوارق واحة «جانت» قد استقرّوا منذ العصر الحجري المتوسّط (paléolithique moyen) والاستقرار الناتج جرّاء الظّروف الطبيعيّة كالجفاف الذي جعل الحكومة تتدخل لإسكانهم بمراكز سكنيّة كالقرى الفلاحيّة، مثلما حدث أيام الرئيس هواري بومدين،

أو سكنات عشوائيّة، كتجمّعات بناء وسكن[3].
لا توجد لدينا إحصائيّات ذات مصداقية تعبّر عن العدد الحقيقي للطّوارق في البلدان الخمسة. إذ هناك من يقدّر عددهم بثلاث ملايين وخمسمائة ألف نسمة، يشكّل طوارق النّيجر والمالي غالبيّتهم (85%). فقد بلغ عدد طوارق منطقة الآزجر[4] حوالي 54494 نسمة، وبلغ الذكور منهم 28844 نسمة بينما بلغ عدد الإناث 25650 نسمة (بوزيد – سبابو، 2009) وهي إحصائيات عام 2008.

## ثالثاً: التنظيم الاجتماعي للطّوارق

تقترن القبائل والمجموعات الموجودة بعالم الطوارق، بالسّلطة السياسيّة التي تعرف تحت مصطلح «الطبل» وهذا ناتج عن التراتبيّة الواضحة لمجتمعات الطوارق من خلال تشكّلهم ضمن قبائل يطلق عليها «توساتين» أو «توشاتين» والتي تعني المعصم (Alawjeli, Gh., agg., 1985 p. 202) أو راحة اليد التي تتفرع عنها الأصابع. (Nicolaisen, J., 1982). وهذه القبائل غير متكافئة المكانة وتربطها علاقات خضوع وتبعيّة لها ميزاتها في عالم الطوارق. إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال، في المستوى الذي وصلت إليه الدراسات حول الطوارق، أن ننظر إلى البنية الاجتماعية على أساس الثبات الداخلي، بعيداً عن التّأثيرات الخارجيّة التي تنعت بـ «الصّدمة» (صدمة الاستعمار، التعريب)، إذ إنّ القول بتعدّد بنيات مجتمع الطوارق أمر يفرض نفسه على الباحثين، فمن الناحية الشكلية نجد النبلاء في قمّة الهرم الاجتماعي، والتابعين من بعد، ثمّ العبيد والحرفيين.
لكنّ الأمر ليس بهذه الصورة الآليّة فكلّ مجتمع من مجتمعات الطوارق يعطينا نظاما اجتماعيا تراتبيّا مغايرا في عمقه للآخر: فمجتمع طوارق الآزجر يصبح النّبلاء فيه مرتبطين بالأشراف الذين جاءوا من واحات «تافيلالت» المغربيّة إذ قدموا إلى المنطقة في حوالي القرن الخامس عشر. يطلق عليهم «الإمنان» وكانت بيدهم السلطة السياسيّة، المعروفة بسلطة «الطّبل»[5]. إلى جانبهم قبائل ذات سيادة دون سلطة سياسيّة ساندوا «الامنان» في السّراء والضّراء والمتمثّلين أساسا في قبيلة «الإجضانارن» التي وفدت على المنطقة من النّيجر (الآير). ثمّ يأتي التابعون والملقبّون بأصحاب الماعز (كيل أولّي) مقابل أصحاب الجمال من ذوي السيادة والجاه. لتأتي الجماعات القصوريّة (سكّان القصور بالواحة، والقصر هنا عبارة عن هندسة معماريّة صحراويّة دون أي تضمين سلطوي)، سكّان أكثر واحات المنطقة أهميّة وهي واحة «جانت». وفي الأسفل يأتي العبيد ثم الحرفيون.

[3] عبارة نجدها عبر كامل الصحراء الجزائريّة، حيثما وجدت بنايات شيّدت دون تراخيص بناء وتضمّ بينها العديد من الجنسيات، بالمفهوم الحديث للجنسية والهويّة في عالم الطوارق: نجد بالجزائر طوارق المالي، الموريطانيين، مجموعات من النيجر وغيرهم. وأيضا نجد عبارة : ابني واسكن تلازم العبارة الأولى وفي نفس سياقها.
[4] يطلق على كامل المنطقة المدروسة، بالتاسيلي ن آزجر، تقع منطقة التاسيلي (تسيلي: ومعناها الحمّادة) بين خطّي عرض 21 و29 شمالا وخطّي طول 6 و12 شرقا، يحدّه الأهار غربا وحمّادة تنغرت شمالا وتنيري تفساسات غربا، وهضبة الجادو جنوبا ومرتفعات تادرارت وعر مرزوق شرقا. بينمل يقصد بالآزجر إمّا فعل عبور النهر أو مجرى المياه أو الثور، لم يحدد المعنى المقصود: لأنّهم يطلقون لفظ «إسو» على الثور في لغتهم أي «تماهق».
[5] من الطبول الكبيرة جدا التي تضرب لتستنفر جميع القبائل لتجتمع للفصل في أمور الحرب والسّلم، ومازال موجودا لدى نساء هذه القبيلة اللواتي مازلن الوحيدات في كامل عالم الطوارق يحملن لقب السّلطانات.

تتأسّس القبائل والجماعات على أصول النساء منذ الولادة التاريخية (الأصول الأسطوريّة للجماعة أو القبيلة) إلى الولادة البيولوجية (نسب الأبناء الحالي) إذ إنّ المجتمع يولي أهميّة للبطن (تَسَا) عوض الظهر (رُورِي) أي للقرابة الرحمية على قرابة العصب. والمثل السّائد في هذه المجتمعات هو أنّ البطن هي التي تصبغ المولود، أي تعطيه هويّته الأولى. وبالرّغم من هذا لا يمكن الفصل نهائيّا في نظام سيادة الأمّ (matriarcat) في بلاد الطوارق إذا ما أخذنا بشروط الشيخ ديو (Diop, 1967) الذي يقصي الطوارق من كونهم عرفوا هذا النظام في أيّ فترة من تاريخهم الطويل، بل أكثر من ذلك يحدّد الشعوب التي عرفت سيادة الأمّ بكلّ دقّة.

وأمام هذا التشظّي والتباين للقبائل المشكّلة للمجتمع عامّة لابدّ من مؤسّسات تضبطه وتحدّ من الصراعات فيه، مثل استراتيجيّات الولاءات الناتجة عن فترات حاسمة في تاريخه المحلّي، ومؤسّسات المزج المختلفة وما يترتّب عن هذه الأخيرة من آثار اجتماعية تعتبر كفضاءات تنفيس من عبء الفوارق التي نتجت عن تراتبيّة المجتمع، ومختلف العلاقات التي تربط القبائل في ما بينها وتربط الرجال والنساء وتحدّد مسار التواصل بينهم.

## رابعاً: الطوارق على محكّات التغيير

يعزى التغيّر الحاصل في مجتمعات الطوارق إلى عاملين أساسيين وهما: الاستعمار الفرنسي الذي قضى على السلطة السياسيّة التقليديّة وحاول تسييرها حسب مصالحه في المنطقة من جهة، واستقلال الدول التي يوجد بها الطوارق وما نتج عن تشكّل الدول الوطنيّة. فبقدر ما حاول بلد كالجزائر إدماج مجتمعات الهامش في «الحداثة» بواسطة التعليم المجاني بعد الاستقلال مباشرة وشملت محاولته حتّى مجموعات الطوارق النازحين إلى حدودها مثل مجموعات طوارق المالي والنيجر، فإن بلدانا أخرى سعت إلى تعميق الهوّة بين الطوارق والمركز.

### 1. تغيرات ناتجة عن الاستعمار

كان الدّفاع عن الإقليم هاجس الطّوارق وامتلاك السّلاح غايتهم. فالوظيفة التي كانوا يطالبون بها هي التمكّن من إقليمهم، ومراقبة وحقّ الدّخول في تلك الفضاءات (Gast, M., 1989 p. 5)، لكن اكتساح الفرنسيين للصحراء الجزائرية شيئا فشيئا جعل الطوارق غير قادرين على الاستمرار في نظام الغزو، الذي بواسطته يتحصّلون على الغنائم والعبيد ما يضمن استمرار نظامهم التقليدي. إذ يعتبر القضاء على نظام الغزو والغارات مساسا مباشرا بحريّة الطوارق النبلاء والذي كانت له نتائج ليس فقط اقتصادية (نظام الإتاوات) بل ونفسيّة لأنّ ذلك أدّى إلى فقدان دور الحماية المخوّل للنّبلاء المحاربين. (Mécheri-saada, N., 1990 p. 138). ونتيجة تلك الحماية والأمان تردّ على شكل إتاوات من طبيعة متنوعة: حبوب ولحوم وألبان وغيرها من المواد. وفي مقابل ذلك نهجوا نظام القوافل ومقايضة أملاح موقع «أمدغور» ونبات «الشيح» مع بلاد السودان[6].

[6] يقصد ببلاد السودان جمهوريّة النيجر الحالية.

إدخال نظام النقد عوض المقايضة بإدخال تجار منطقتي «ميزاب» و«توات» و«تيديكلت» (Mécheri-Saada, N., 1990 p. 139) على النظام الاقتصادي التقليدي.

أصبح الوجود الاستعماري عامل تشويش بتدخله في مجمل الطقوس والعادات المحلية، إذ أساء فهمها وتأويلها (Gay, cap., 1935).

يضاف إلى ذلك محاولة المؤسسة العلاجية الأوروبية بناء نموذج نظافة غربي مقابل النموذج المحليّ، والذي يستخدم تعابير التقزّز ومختلف النّعوت المحقّرة للطوارق وغيرهم من الشعوب التي كانت تحت سيطرتهم. كذلك محاولتهم تأسيس مدارس لبثّ رسائل الحضارة الواهية بينهم، والتي كانت نتيجتها رفض المجتمع التعلّم والتّداوي عند «النّصارى» الذين أطلق عليهم «إكوفار». وقبلها فقد كانت مقاومة الاستعمار بمنطقتي «الأهقّار» و«الآزجر» عنيفة ممّا أخّر دخول الفرنسيين بصفة نهائيّة للمنطقة (Azjer, p. 1914).

## 2. التغيّرات الناتجة عن الاستقلال

من كبرى نتائج الاستقلال إحداث رفاهيّة لا تضاهى على كامل المجتمع، إذ إنّ حالات الفقر والعوز تشغل مخيال المجتمع الطارقي برمّته. فالذاكرة تختزن آلاف الحكايات المؤلمة، الارتباط بالأجانب، الدعارة، العري والجوع...الخ. كذلك يعتبر الخوض في قضيّة شائكة (لحد الساعة) وهي قضيّة العبيد وتحريرهم، ومختلف النقاشات وردود الأفعال الناجمة عن ذلك. ذلك أنّ المجتمع جدّ تراتبي، كما سبق وأن اشرنا إلى ذلك، ممّا جعل مؤسّسات الدولة الحديثة تطلب غضّ الطرف على هذه القضيّة الهامّة، لأنّ السياسة اقتضت ذلك. نتيجة ذلك فقد النبلاء وأتباعهم من الأحرار اليد العاملة ممّا جعلهم غير قادرين على إعالة الباقي من أتباعهم فأطلقوا سراحهم، وإن حلّت هذه المشكلة على مستوى المؤسّسة فإنّ التصوّرات التي تحيط هؤلاء العبيد لن تنتهي.

تجدر الإشارة إلى أن نسبة التعليم الجامعي في مجتمعات الطوارق تعتبر من أقلّ النسب مقارنة بجيرانهم شعوب «الهاوصا» (Hausa) أو«البامبارا» (Bambara)[7] أو العرب لكونهم بدو رحل في الأساس. وأنّ النسب المسجّلة لغاية نهاية السبعينات وبداية الثمانينات لا تفوق مستوى التعليم الابتدائي إذ بلغت نسبة النجاح سنة 1978 الى 52% مقابل 56% في العام 1980 (بوسعادة، ر، وهجرس ع. ب، 1938-1984 p. 38). ولم تتغيّر الوضعية حتى التسعينات حيث بدا النجاح في شهادة البكالوريا يظهر بطيئا والنسب ضئيلة إلى أقصى الحدود.

إنّ الانتقال إلى الجامعة يعتبر حلما للجميع وكذلك الانتقال بالطائرة إلى العاصمة والمدن الكبرى له خصوصياته الساحرة. كما أنه لا يمكن نكران دور التعليم العالي في الترقية الاجتماعية للأبناء وللمجتمع، إذ أصبح هاجسا للجميع، ولدى كل الفئات، في مجتمع لا يمكننا أن نحكم عليه بالأميّة والتخلّف، نظرا لميزاته العديدة (معرفته بالكتابة، قوانينه وأعرافه «الراقية» ...إلخ).

[7] تعتبر إثنيات ولغات تتكلم بها المجموعات المجاورة للطوارق من «الزنوج» والتي قد تكون مفهومة لدى الطوارق نتيجة الاحتكاك والاقتباس والتثاقف. بينما يطلق على لغة الطوارق: تماهق لدى طوارق الشمال وتماشق لدى طوارق المالي وتماجق لدى طوارق الآير.

## خامساً: سلوكات الجامعيين إزاء التقاليد ومؤسّساتها

لابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ البحث في هذه الإشكالية جديد على باحثة مثلي انصبّت اهتماماتها على عالم الرموز الممتدّ المتعدّد الدلالات، لكن معايناتي لبعض أشكال العنف ضد النساء هو الذي ساقني للبحث في مجال التغيّر الذي طرأ على المجتمع، وبدأ يشكّل ظاهرة متشعّبة، كما سنرى.

ولم أكتف بالمعاينات الملموسة وما تعلن عنه النساء، في أحاديث كلّ يوم، بل أقحمت الجامعّيين في هذا العمل، منهم من تخرّج وتوظّف ومنهم من هو قيد التخرّج كعيّنة تجريبية (طلبة في المدن الجامعية في العاصمة، ومتخرّجون بواحة جانت).

تعتبر مدينة «ورقلة» (Ouargla) بالجنوب الشّرقي قطبا جامعيّا يتوجّه نحوه الطلبة من الطوارق وهي مدينة تبعد 1460 كم عن مدينة «جانت» مثلا ، وهي تختلف في عاداتها وتقاليدها ونظامها الاجتماعي عن الطّوارق. تأتي بعدها الجزائر العاصمة بجامعاتها كوجهة للجامعيين الطوارق (تشمل هذه الدراسة الطلبة في منطقة جانت وضواحيها ولا تشمل بقية المناطق لعدم معاينتي لها). وفي السّنوات الأخيرة أصبحت مدينة «البليدة» جنوب مدينة الجزائر بحوالي 50 كم جاذبة للطلبة الطوراق. يبلغ عدد الطلبة في المدن الثلاث مائتي (200) طالب. هذه الأرقام جاءت من جمعيّة «أغانيب»، ومعناها القلم، وهي جمعية تقوم بالتّسجيلات الأوليّة للطّلبة الحائزين على البكالوريا في مختلف الجامعات التي يرغبون فيها.

بلغ إجمالي طلبة الجزائر 1.158.925 طالب، يشكّل طلبة ولاية ورقلة منهم 20000 طالب. ولا يمكننا تحديد عدد الجامعيين الطّوارق لعدم وجود مركز جامعي بولاية «إليزي» التي تعتبر مدينة «جانت» إحدى دوائرها. كما أنّ المركز الجامعي بثاني كبريات المدن التي يقطنها الطوارق، وهي مدينة «تمنغست» (Tamanrasset) على حدود جمهورية مالي، حديث جدّا الأمر الذي صعب مهمتنا في جمع الإحصاءات.

تقع واحة «جانت» في أقصى الجنوب الشرقي الجزائري على الحدود الليبية النيجريّة، تبعد عن العاصمة ألفين وثلاثماية كيلومتر. وتعتبر الطائرة وسيلة النّقل الأكثر يسرا لقطع هذه المسافة في ظرف ساعتين إلى ثلاث ساعات. أمّا عن طريق البرّ فتستغرق الرحلة من يومين إلى ثلاثة أيّام. ولتقريب الشمال بالجنوب وتحفيز الطّوارق على التّعليم تمنح الدولة الجزائريّة تذكرة سفر ذهابا وإيّابا مجانية، سنويّة، لطلبة الجنوب لأنّ أسعار التذاكر ليست في متناول الجميع لارتفاعها.

ومثلما يواجه الباحث تغيرات ناجمة عن احتكاكه بالطّوارق بفعل التّجربة والمعايشة الوجدانيّة، يتأثّر في المقابل الطلبة الوافدون على الجامعات بالمدن المختلفة عنهم شكلا ومضمونا لبهرجة «التّحديث». وهذه التّأثيرات تؤخذ في شكليها «الإيجابي» و«السّلبي» كما أشار إلى ذلك الطلبة أنفسهم.

من خلال تجربة البحث الميداني، تبين أنّ جانبا من العنف و«إصلاح» مفاهيم الدين جاء بها الجامعيّون وربّما قبلهم أناس أتوا للمنطقة. لكن هؤلاء الأخيرين ليست لهم فعالية مباشرة. يتعلق الأمر بمؤسّسات حديثة كالقانون الوضعي، أدخلت العنف. بقانون غب الطلب، لتحديد أكثر الحركات حميميّة لدى النّساء واخضاعهن لمحكّات صارمة سبّبتها «خطب الجمعة» «التحريضيّة» الداعية إلى تصويب سلوكات النّساء المنحرفة. بتكريس المراقبة «الجراحيّة» على أجساد النّساء من قبل اللّجان الطبيّة وشهاداتهم التي تمنح صلاحيّة الزّواج من عدمه، فتكفي شهادة عدم الحمل لزواج الفتاة أو لإعادة زواج المطلّقات والأرامل. لقد أصبحت تلك الشّهادة مطلوبة لإتمام مراسيم الزّواج المدنيّة، وبدونه يبطل كلّ مشروع.

أصبحت مدن الطوارق مراكز جاذبة للشماليّين لما توفّره من فرص عمل مغرية وراحة بال من عناء سنوات العنف. لقد اخترق سكّان المدن الشماليّة (مدن الشّرق الجزائري: باتنة وسطيف ووادي سوف وغرداية وغيرها) بعض مستويات المجتمع التقليدي، عن طريق اغتنام فرصة التقرّب من النّساء اللّواتي يظهرن في فضاءات واسعة، سافرات هادئات الخطوات متبخترات ومتغنجات وسط الأسواق وفي مساحات الاحتفالات الدائمة. وهذا ما يؤدي إلى إقامة علاقات تفضي إلى العنف في غالب الأحيان لاختلاط منظومات القيم من الجانبين.

فإذا كان الرجال الجامعيون من الطّوارق يفضّلون حرية نساء الشمال، لمرونة التعامل معهنّ دون رقابة الهرميّة التي تحدّد المصائر، مصير اختيار الشريك، فإن البنات يفضّلن الجنوب لما يمنحه لهن المجتمع التقليدي من امتيازات وحماية من كل مصير مجهول. كما أنّنا لم نلحظ وجود رغبة في العيش بعيدا عن المجتمع، والتطلّع للهجرة كما هو الشّأن لدى الشباب عموما والمتعلّم على الخصوص، بل هناك لديهم ولع بالسّفر والاكتشاف لمجتمعات مغايرة ثم العودة بعد التأكّد من أنّ مجتمعهم أفضل بكثير من المجتمعات الأخرى التي سادتها العديد من الظواهر «السلبيّة» كالمخدّرات والعنف وعدم الاحترام.

يمكن حصر تدخّل الجامعيين على مستويات متفاوتة بالأنظمة والمؤسّسات التقليديّة كما يلي:

1. **على المستوى السياسي**: هناك محاولات الجامعيّين كفاعلين جدد في المجتمع للنفاذ في مختلف مستويات المؤسسات التقليدية المتعلّقة بالقرار «السياسي» وإيصال أصواتهم للمسؤولين في الشّمال، لكن محاولاتهم تلك تبوء بالفشل، لأنّ الاستراتيجيّات التي تتبنّاها السّلطة المركزيّة تقوم على التقرّب من الطوارق و«مراقبتهم» والسيطرة عليهم من خلال الهرميّة الاجتماعيّة الموجودة وليس من خلال الأفراد، ما يعني أزليّة النبلاء ومن هم على شاكلتهم. كما يلاحظ أنّ الفتيات الجامعيّات يطمحن لترقية النساء معرفيّا بالحدّ من الأميّة. للتّذكير فقط فإنّ إقبال النساء من أعمار مختلفة على تعلّم القراءة والكتابة أصبح ظاهرة تسترعي الانتباه.
2. **على المستوى الاجتماعي**: من خلال التنظيمات الجمعويّة والمبادرات التي يتولاها جامعيّون يمكن لمحاولات تغيير متعدّدة أن تحدث. فالشباب ينضوون في تشكيلات «مناوئة» رمزيّا للتنظيمات الجماعية القائمة، مع الولاء الذي تفرضه متطلبات السياحة التي يعول عليها لنهضة اقتصادية حقيقية لكامل المجتمع. إذ بدأت تكثر الوكالات السياحية التي يسيّرها جامعيون ممّن يبدون عزوفا عن الممارسات المنعوتة بالتقليدية ويترفعون عنها، لكنهم مرغمون على تقديمها كمنتج وممارسات الأجداد الغابرة في القدم ليقبل السواح على استهلاكها بكل انبهار.
3. **الجامعيون والجندر**: بالرّغم من أنّ التّعليم الجامعي شمل البنات والأولاد دون تمييز واضح، لكن يمكن إدخال الجندر كمستوى تحليلي هنا، لأن الشابات الجامعيّات لا يشكّلن قوة فاعلة ومسيّرة بأي شكل من الأشكال. وهذا في رأيي يشكل نوعا من تغيّر في الأدوار وتقهقرها بعد بلوغ مستوى عال من التعليم. فعوض أن يضيف ذلك مركزيّة للمرأة التي سندتها المؤسّسات التقليديّة، أفقدها التعليم فاعليّتها وجعلها ساكنة قابعة في وظيفة. لكن هناك بذور لمشاريع اجتماعية للمتخرجات بالمفهوم الحديث: كإنشاء جمعيات حديثة: حماية المستهلك...
4. **الجامعيّون والنظام الأمومي**: كما هو متعارف عليه فإن الانتساب لقبيلة الأم هو الطريقة الشائعة بين الطوارق ولاسيّما طوارق «الآزجر» منهم وسكان واحة «جانت» الأكثر تمسكا بذلك

لارتباط النساء بنظام الزراعة منذ قديم الزمان. وهذه النقطة بالذات تشكل حرجا كبيرا لمن «تعلموا» وتشبعوا بمبادئ وتعاليم الإسلام، وهذه المسألة تجرّ إلى مسائل أخرى ترتبط بالأولى كقضايا حبس الخيرات على النساء دون الرجال وسفور النساء و«حالات اختلاطهنّ» أثناء الاحتفالات والطقوس، ممّا يولد شعورا بـ «الاشمئزاز» إزاء الشذوذ عن قواعد القرابة لدى جيرانهم. لذلك يسعى المتعلمون الجدد إلى إيجاد مساحات لظهور سلطة أبويّة من خلال «المراقبة» وتعديل السّلوكات التي لم تعد ملائمة للنظام الاجتماعي الجديد الطاغي.

مع دخول عناصر جديدة ناجمة عن الاحتكاك بسكان الشمال والمجاورين لهم من سكان الصحراء والمصاهرات أصبحت العلاقات الخارجية متنوعة وتزداد يوما بعد يوم. أظهر الاستقصاء أن الشّابّات الجامعيّات هن أكثر انفتاحا على الآخر وأكثر اندماجا في المجتمع الذي يستقبلهم، وهذا يعتبر امتدادا لتقاليد النّساء في مجتمعهم، حيث تفتح النساء أبواب بيوتهنّ لاستقبال من يأتون من الشمال ولاسيّما النساء بإسكانهنّ والتكفّل بهنّ، وهذا ما حدث بالنسبة لي كباحثة فالجميع كان على استعداد لاستقبالي في احتفالية كبيرة. في حين يأتي الرجال لممارسة لعبة الإغراء.

5. **الجامعيون ومؤسّسة الزواج**: تبقى مؤسّسة الزواج في شكلها التقليدي، المؤسسة الرّمز التي تشكل مصدر إجماع على ضرورة بقائها، إذ يرغب الجميع في الزواج بشكل تقليدي وإن انتقدت بعض مظاهر البذخ والتبذير فيه من تكاليف باهظة، وجمال تذبح بالمناسبة واستمرارها على مدار أيام... هل يراد من ذلك تكريس الخيارات القبلية المهيكلة منذ زمن الجدات؟ أم يقصد من فكرة الزواج تقليديا بقاء الشكل دون المضمون، أي الطابع الاحتفالي فقط دون التدخل في اختيار الشريك؟

## سادساً: خلاصة

يعيش المجتمع الطارقي على وقع تغيرات كبرى مثله مثل باقي المجتمعات الأخرى. إنه يتتأثر بكل ما يجري في العالم وفي العالم الاسلامي من أحداث ما يغيّر مباشرة في مجريات حياة ابنائه وطقوسهم: فاحتفالات «سبيبة» (عاشوراء) هذه السنة أتت حزينة ولم تشارك فيها السيدات ذوات الخبرات والمهارات الفنية والأدائيّة بسبب مجازر غزة. فلا يعقل أن نغني ونرقص ونفرح والأطفال يذبحون والمسلمون تحصد أرواحهم كلّ لحظة، كما أنّ الشباب الجامعيين وأصحاب الشهادات أقاموا مظاهراتهم في ذلك اليوم للفت الانتباه نحو ما يجري في العالم العربي، متذمرين من أن تقام احتفالات في ذلك اليوم.

لقد خضعت المجتمعات الطارقيّة للعديد من موجات الأسلمة (دخول الإسلام): في القرن السابع بفزّان، وإبان حركة المرابطين... هؤلاء البربر تعوّدوا على معرفة المجتمعات الإسلاميّة خلال كلّ تلك الحقب لأنّهم شاركوا تقريبا في كلّ المعارك في الشمال والجنوب (Gast, M., 1989 p. 4).

يرى الجامعيون أنهم ضحايا مؤامرة التقليديين ممّن لا يريدون للمجتمع أن يتغير نحو الأمام، بل يقصونهم بشتى الوسائل حتى تتاح لهم الفرص لإبقاء الوضع على ما هو عليه، مجتمع يجترّ نفسه وامتيازاته على حساب الضّعفاء المعدومين. فبالعلم قد تتغيّر الذهنيّات وتنفجر الهرميّات وتذوب أفكار الأصول التي تقصي وتهمّش الأفراد بالرغم من كفاءاتهم العالية.

يحتاج هذا الموضوع إلى تمرّس ميداني أكبر بإجراء مقابلات معمقة إذ إنّ القيم الجديدة التي يحملها الجامعيون لم تجد فضاء لها محددا فما تزال ظلال الجدّات تشكل أشباحا لا تفارق مخيلة الأبناء ممن أصبحوا يعتقدون بضرورة تجاوز ذلك الزمن الذي ولىّ، بينما يرى من يحتكّ أوّل مرة بالمجتمع أنّ تلك التقاليد هي قلب الحداثة اليوم ومصدرا هامّا من مصادر التّشريعات الحديثة لحقوق النّساء، وخطوة نحو تكافؤ الجنسين ومساواتهم وهذا ما بدأت الجامعيّات تحسّه وتتلمّسه بالمقارنات، لكن الدفع بتفعيل مجتمع النساء لن يكون إلا بانتشار التعليم بكافة مستوياته.

كذلك يتعيّن علينا دراسة المجتمع النّسائي وإشكالية التّعليم فيه بصورة معمّقة، لما يطرحه من نماذج خاصّة تغيّر مفهومنا للأميّة وللكتابة، إذ إنّ نساء الطّوارق كنّ الناقلات لتقاليد الكتابة عبر التاريخ، مكتابة «التّيفيناغ» كانت رموزهم في التّواصل، وحتى هذه الساعة مازلن يمتلكن أسرارها ولاسيّما المسنّات منهنّ، يلقّنها للأولاد. وكان التواصل بالكتابة ومستوى الشّعر كلغة راقية سمة هذه المجتمعات، فهل يمكن بعد هذا أن نصف هذا المجتمع بالأميّة؟

## المراجع


بو زيد سبابو، مريم (2009). **دور الغناء والموسيقى في تشكّل الهويّات الاجتماعيّة عند توارق الآزجر**. (أطروحة دكتوراه). الجزائر: جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم علم الاجتماع.

سعادة، رشيد، وهجرس، عبد الباقي (1984). دراسة **مونوغرافية لمدينة جانت**. مركز البحوث الأنثروبولوجية والاتنوغرافيا وما قبل التاريخ.

Alawjali, Gh. Agg (1985). *Lexique Touareg-français*. Edit. et révision, introduction et tableaux morphologique par karl. Copenhague: G. prasse, AkademiskForlag, XVI.

Diop, Ch. A (1967). *Antériorité de l'Afrique noire*. Présence Africaine.

Duveyrier, Henri (1864). *Les Touareg du Nord. Exploration du sahara*. Paris: Challamel Ainé.

Gast, M. (1989). *Echanges transsahariens et survie des populations locales*. Ecol. Hum., Vol. VII, n°2.

Gay, le capitaine (1935). *Sur la «sebiba».* Société des africanistes.

Mecheri Saada, N. (1990). *Musique et société chez les Touaregs de l'Ahaggar*. REMMM 58.

Nicolaisen, J. (1982). *Structures politiques de l'Ahaggar*. Etudes Nigériennes, n°7.

http:/www.mondeberbere.com/PARImazigh/primazigh5/Touregue.htm

Encyclopédie Berbère. Edisud, 1986